# حسن حنفي والنقد الفينومينولوجي لعلم الكلام

د. جلول مقورة

جامعة محمد بوضياف – المسيلة

docdjelloul@yahoo.fr

الملخص :

إن تعاطي حسن حنفي لأهم مناهج التفكير الفينومينولوجي الظواهري عند كل من ادموند هوسرل، هيجل، فيورباخ هي دلالة واضحة على ارتباط فكره بالمنهج الهيجلي، الفيورباخي الذي يقوم على أنسنة اللاهوت، فحسن حنفي يتصرف مع علم أصول الدين على أساس أنه المخزون النفسي لدى الجماهير، هذا المخزون النفسي هو محصن في الوعي العام. وعلى هذا ينسحب الوعي الجماهيري من المحتوى اللاهوتي إلى مستوى آخر هو المستوى التحرري الإنساني.

إن المضمون اللاهوتي لعلم الكلام مآله السلبية، لأن الذات تكتشف عجزها عن معرفة الكائن المطلق، فهي إذن عبثا تحاول، فيبدأ حسن حنفي رحلته في تبني فكرة تهافت علم الكلام بالمعنى التقليدي من هدم التعريف القديم الذي يقوم على الفصل بين المعنيين المتلاحمين للعقيدة ألا وهما النظر والعمل، لذلك أبيح للعقل أن يجتهد ويتحرر في الجانب العملي (الفقه)، ولم ينل الفرصة ذاتها فيما يتعلق بأنسنة اللاهوت فإذن رسالة المثقف والمفكر العربي هي إحداث القطيعة ليس مع التراث وإنما مع التصور التقليدي له، وتجاوزه بصورة كلية وهذا ضرورة وليس اختيارا فتكرار ما قبل، والجمع بين أجزائه وأقصى ما نفعله نشر المخطوطات دون تغيير أو تطوير أو إعادة اختيار، وكأن التراث جسم ميت، ولذلك وجب إنتاج خطاب ديني جديد.

## Hassan hanafi -phenomenological criticism

**Abstract**

Hassan Hanafi is a disciple of the phenomenologist Otman Amine , he published a trilogy in which , he used Husserl's methods to reconstruct classic Islamic philosophy .This paper aims to shed light on aspects of innovation in the thought of Hanafi in his readings of religious discourse .For the purpose of this paper innovation means the areas in which Hanafi challenged traditional readings it also aims at proving that Hanafi's thought essentially implies a whole projects of re- reading Islamic heritage to humanize and to adopt a

phenomenological approach for the study , analysis and reading of religious texts .

**مقدمة**

لا يختلف الدارسون في حقل المعرفة الإسلامية أن صنفين من المباحث تحتل منظومته الفكرية، صنف يتعلق بالعمل وهو ما اصطلح عليه اسم علم الفقه، وصنف آخر يتعلق بالاعتقاد وهو ما اصطلح عليه فيما بعد بعلم الكلام.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علم الكلام، لم يكن علما دقيقا، ومضبوط المعالم من حيث كثرة تسمياته، وتعدد تعريفاته وتداخله مع علوم الدراية والرواية في الآن ذاته، ويمكن للناظر في مدونات العقائد الإسلامية بمختلف أطيافها الفكرية أن يلحظ هذا التعدد في التسميات، فيعترضه أحيانا اصطلاح علم الكلام أو الكلام الإسلامي، وتشد انتباهه أحايين أخرى اصطلاحات بديلة من قبيل الفقه الأكبر وأصول الدين، وعلم التوحيد وعلم العقائد وعلم النظر والاستدلال، إضافة إلى هذا التعدد الكبير للتسميات، نجده يتداخل بصفة كبيرة مع علوم إسلامية* ورغم كل ذلك فان الاهتمام بعلم الكلام يقف على مجموعة من المفاهيم من بينها ما قاله التفتزاني "أعلم أن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية، ومنها ما يتعلق بكيفية الاعتقاد وتسمى أصلية واعتقاديه، والعلم المتعلق بالأولى يسمى علم الشرائع والأحكام...وبالثانية علم التوحيد والصفات"[1]، كما عرفه الإيجي بقوله: " علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإراد الحجج ورفع الشبه، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد، فإن الخصم وان خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام"[2]، وأكد الغزالي على أنه: "علم مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة"[3].

وعلى عموم التعريف فقد ارتبط علم الكلام دائما، بمهمة أساسية تتعلق بالدفاع عن العقيدة من اعتبار أنه آلة الفكر الكلامي ويده الطويلة التي بإمكانها عن طريق منهج الحوار والحجاج، والمناظرة، أن ترد هجوم المشككين واستهتار المتخاذلين، لكن التساؤل المطروح هل يجب أن نكتفي بالتأريخ لعلم الكلام والحديث عن أصالته وعن قيمته في التأكيد على وجود فعل حضاري إسلامي وقديم، أم أن الأمر يجب أن يأخذ مسلكا آخر، من خلال أن يكون لعلم الكلام وظيفة مثل التي أداها، والنظر إليه على أنه منهج وطريق في التفكير،

وجب الاستفادة منه عن طريق تجديده، فالمطلوب هل هو تجديد علم الكلام أم تأسيس علم كلام جديد، من هذا يرى مصطفى التارزي، أن التجديد المقبول في الدين لا يعني التمييز أو التحول عن أصول الدين وفروعه لأن هذا لا يسمى تجديدا بل انحلالا وتفككا، وذوبانا وموتا[4]، فالتجديد إذن يجب أن يأخذ وظيفة تبيان أصول الدين للناس بصورة جديدة تتسق مع معطيات زمانهم، ومستجدات عصرهم مع ما يلازم ذلك من إزالة لما اعترى مفهومهم من شوائب علقت، وشبهات طرأت أو طوارئ جدَت، وعلى هذا يرى عبد الرؤوف الحناوي أن علم الكلام يختص بعرض العقيدة، والدفاع عن مبادئها وأصولها والتجديد هاهنا لا يخص الثابت، بل الذي يتجدد لأنه يتقادم هو الخطاب الإسلامي، ويشكل التفاعل بين الوحي، والوعي، أي بين عقول المسلمين وثوابت الدين الخالدة[5].

وسواء توحدّت هذه النية في النظر إلى العقيدة، وملامسة هذا الهدف لفاعلية علم الكلام أم لا، فإنه في النهاية وجدت الحديث عن تصورات كثيرة لإعادة إنتاج الخطاب الكلامي في الفكر العربي المعاصر، اتساقا مع المناهج المختلفة للأنساق الفكرية العربية الإسلامية، محاولة التعاطي مع هذا العلم بالشكل الذي يعيد قراءة نفسه من جديد، وذلك بطرح مشكلات جديدة، ومعالجة هذه المشكلات بمناهج ووسائل جديدة.

ونستطيع القول أن مبحث علم الكلام ظل الحلقة الأضعف في حقل الدراسات الأكاديمية في عالمنا العربي، فبعد المحاولات الأولى التي قام بها أحمد أمين، عبد الرحمان بدوي، وسامي النشار، ضعف الاهتمام بعلم الكلام ولم يتجدد الاهتمام به إلا في الثمانينيات على يد الجابري، وحسن حنفي في سياق مشروعهما الفلسفي، وبالتالي فلم تكن الوجهة محددة نحو علم الكلام بقدر ما كانت العملية عبارة عن إسقاطات لأنساقهما الفكرية.

وقد تحسن الاهتمام بهذا العلم في السنوات القليلة الماضية من خلال مدرستين متميزتين في المغرب وتونس قاداها كل من أبو يعرب المرزوقي في تونس، وطه عبد الرحمان في المغرب، وقد ساعد الحس المنطقي لهذا الأخير، ومن خلال مؤلفه في أصول الحوار وتجديد علم الكلام في بعث طرح متفرد ومؤسس علميا، نحو إعادة تجديد علم الكلام تجديدا إبداعيا تأصيليا يؤكد نزوع هذا المفكر نحو المزاوجة بين التأثيل والإبداع.

إن محاولة حسن حنفي قراءة وتجديد علم الكلام في سياق ثورته التراث والتجديد لهي محاولة متفردة ، فيعتبر مشروعه الضخم من العقيدة إلى الثورة الملاذ المفصلي في دحضه

للمنظومة الاصطلاحية والمنهجية التي رافقت علم الكلام التقليدي، فما هي يا ترى الأسس والملاحظات التي أبداها حسن حنفي لأجل إعادة تسويق الخطاب الكلامي بما يتلاءم ومشروعه التجديدي في التراث؟

أ- علم الكلام بين المفهوم القديم والجديد : بداءة يجب الإشارة إلى تعاطي حسن حنفي لأهم مناهج التفكير الفينومينولوجي الظواهري عند كل من ادمونسد هوسرل، هيجل، فيورباخ هي دلالة واضحة على ارتباط فكره بالمنهج الهيجلي، الفيورباخي الذي يقوم على أنسنة اللاهوت، فحسن حنفي يتصرف مع علم أصول الدين على أساس أنه المخزون النفسي لدى الجماهير، هذا المخزون النفسي هو محصن في الوعي العام. وعلى هذا ينسحب الوعي الجماهيري من المحتوى اللاهوتي إلى مستوى آخر هو المستوى التحرري الإنساني.

إن المضمون اللاهوتي لعلم الكلام مآله السلبية، لأن الذات تكتشف عجزها عن معرفة الكائن المطلق، فهي إذن عبثا تحاول، يبدأ حسن حنفي رحلته في تبني فكرة تهافت علم الكلام بالمعنى التقليدي من هدم التعريف القديم الذي يقوم على الفصل بين المعنيين المتلاحمين للعقيدة ألا وهما النظر والعمل، لذلك أبيح للعقل أن يجتهد ويتحرر في الجانب العملي (الفقه)، ولم ينل الفرصة ذاتها فيما يتعلق بأنسنة اللاهوت يقول حسن حنفي "يكاد يجمع القدماء على أن علم التوحيد أو علم الكلام هو العلم بالعقائد الدينية على الأدلة اليقينية ،أي أنه العلم بالأدلة على صحة العقائد، والصدق هنا نظري خالص، يخضع لقواعد المنطق ولأساليب البرهان، ومن ثمة ينفصل الاعتقاد عن العمل وهو الفصل الشائع في كل التسميات ،فالمراد بالعقائد هنا نفس الاعتقاد دون عمل وكأن العقائد موضوعات نظرية صرفة وليست موجهات للسلوك" (6).

كما يشير حسن حنفي إلى ذلك الاحتكار الذي مارسه التعريف القديم ومبدأ التفضيل الذي أكدوا من خلاله ارتباط مفهوم العقيدة بالعقيدة الإسلامية، في حين أن كل دين يتضمن صحة العقائد القائمة على وجود الله، وخلق العالم، وخلود النفس، ولأن التعريف القديم يقوم على المنهج أكثر من الموضوع، فإن المنهج الجدلي القائم على إيراد الإثباتات ودفع الشبهات، واستعمال الاستدلالات لم ينته إلى نتيجة مطلقة حول أدلة صحة العقائد، لأن المحاججة والمناظرة تتوقف على كيفيات الاستخدام وتحديد الغاية لذا يطرح حسن حنفي

سؤالا كبيرا " هل هناك نظرية ممكنة يتفق عليها الجميع مادام الموضوع واحدا والعقيدة واحدة، أم أننا بصدد فرق ومذاهب متصارعة متناحرة متناقضة تضيع فيها وحدة الموضوع؟ وإن هذه الفرق لا تعبر عن العقائد ولا تستدل على صحتها بقدر ما تستخدمها للتدليل على شيء آخر في الواقع والمجتمع والتاريخ"(7). ومعنى ذلك أن الفيصل في المسألة هو المصلحة، والعمل وليس النظر وبهذا نقع في نوع من النفاق الفكري، تتكون نتيجته حتمية التشكيك في كل العقائد بما في ذلك التوحيد، الذي هو الملاذ بالنسبة للضعفاء، من أجل جمع الشتات ووراثة الإمبراطوريات المنهارة، وعلى ذلك فإن "العقيدة تعبير عن وضع اجتماعي، تأصيل نظري لموقف إنساني ولما كانت العقائد هي وسائل للحراك الاجتماعي"، كانت العقيدة ثورة "ولما كان الهدف من العقائد هو التأصيل النظري للأوضاع الاجتماعية والمواقف الإنسانية منها، فإن إثباتها لا يكون بالأدلة النظرية من أجل إثبات صحتها النظرية، بل يكون بالدفاع عن هذه الأوضاع... فالتصديق لا يكون بالعقل بل بالممارسة"(8).

ولذلك فإن التحدي تغير لأن الزمن تغيّر، فعلم الكلام أيضا يجب أن يتجاوز التعريف القديم القائم على علم العقائد الإيمانية والدينية إلى مفهوم جديد عنوانه علم الصراع الاجتماعي، وبعدما عرّج حسن حنفي على تناقضات علم الكلام بالمفهوم القديم، يحاول أن يستشرف مهمة جديدة لعلم الكلام تختلف من حيث الطرح، والمنهج، والوسائل، وخاصة الموضوعات، عن نظيرتها في العلم القديم* فالتحديات لم تعد نفس التحديات، والإشكالات إختلفت، والمحن، والرهانات تمايزت، لقد انتصر التوحيد وظهر التنزيه واثبت وجود الله بالعقل، والنقل، وأثبتت النبوة، وتحولت بعد ذلك مهمة علم التوحيد من الدفاع إلى الهجوم دلالة على قوته ضد المبتدعة من الملل الأخرى، لكن اليوم تغيرت مواطن الخطر، وتحولت من ذات الله وصفاته وأفعاله إلى أراضي المسلمين، وثرواتهم، وحرياتهم، وهويتهم، وثقافتهم، ووحدتهم، قد تتحول أيضا المقدمات النظرية العامة من نظرية في العلم يغلب عليها الاستدلال، ونظرية في الوجود يغلب عليها مبحث الجواهر والأعراض، إلى مقدمات نظرية أخرى بها نظرية في العلم يغلب عليها تحليل الوجود الإنساني الاجتماعي ومفاهيمه الرئيسية مثل الحرية، والعدالة والديمقراطية والتقدم والتحرر والنهضة(9).

وعلى ذلك وجب استبدال موضوعات ومفاهيم من مثل الواحد والكثير، العلة والمعلول، الوجود والعدم، الوجود والإمكان، بتصورات تتعلق بمشكلات الأمة والشباب كالحرية، والمساواة والإنسان والمجتمع والتقدم والتنمية.

فالتحديات اليوم هي ذات طابع اجتماعي، اقتصادي، وسياسي، وليست ذات طابع وجودي وأنطولوجي، فيؤكد حنفي بهذا أن علم الكلام هو العلم الذي يقرأ في العقيدة واقع المسلمين، من احتلال وتخلف، وقهر، وفقر، وتغريب، وتجزئة، ولا مبالاة، كما يرى فيها مقومات التحرر وعناصر التقدم، وشروط النهضة، لو تم إعادة بنائه طبقا لحاجات العصر، بعد أن بناه القدماء تلبية لحاجات عصرهم .

والواقع وفي ظل الخلط الكبير بين الدين، والخطاب الديني، فإن مهمة الدفاع لن تتجه نحو الدين وإنما نحو تفسير معين للدين، ولا عن العقائد الإسلامية بل عن تصور معين لها، فتحتل بذلك المصلحة مكان المعرفة ،ويصبح علم الكلام هو تبرير لموقف هذا المذهب أو ذاك، فتحتكر الحقيقة ويحظر التفكير ويحل محله التكفير* "الدفاع عن العقائد إذن هو في الحقيقة دفاع عن المذهبية ودفاع عن الفرق الدينية، ودفاع عن الموقع من السلطة، سلطة الحكم، أو سلطة المعارضة والمذهبية والتحزب، كلاهما وقوع في التعصب والانغلاق، وضيق الأفق والتضحية بمصالح الناس من أجل وهم انفعالي أو مصلحة خاصة" (10).

فينقلب بالتالي الدفاع عن الفكرة إلى دفاع عن النفس والهجوم على الفكرة إلى الهجوم على الآخر، فالعلم مهمته التأسيس النظري، أي معرفة البناء النظري للظاهرة وليس معركة في الهواء وجدل عقيم يطرح موضوعات، لا تتعلق بمشكلات الإنسان، والأحداث المباشرة له**.

كل هذه الإفرازات برأي حسن حنفي ترجع أساسا إلى تلك النظرة المحدودة، والمظلمة، والتي لا تتأسس على أي اعتبارات عقلية، وسلوكية للعقيدة، فالعقيدة ثورة يجب أن تلعب دورها التحفيزي والتوجيهي لدحرجة عجلة التاريخ لأجل تحقيق حلم الإنسان الكامل، بعد أن كانت مهمة علم الكلام هي الدفاع عن الله الكامل الواحد، فالعقيدة لا يجب أن تكون حقيقية مفارقة مستقلة بل يجب أن تكون أداة تغيير، وباعث على حل المشاكل المتعلقة بالإنسان، كالاستعمار، والأرض والتنمية فمن الدفاع عن مذاهب العقائد الإيمانية،

والهجوم على أخرى، إلى التأسيس لعقيدة الثورة التي تتوجه لتغذية الصراع والتواصل الاجتماعيين.

ب- علم الكلام المعرفة والمصلحة :

ولأن علمية أي علم ترتكز أساسا على مفهومين هما المنهج والموضوع، فقد توجه حسن حنفي لإعلان تهافت علم الكلام من القطيعة مع المعاني، والمباني التي ارتكز عليها منهجا وموضوعا.

**ب– 1.** اللاعلمية في مناهج علم الكلام: ينطلق حسن حنفي للحديث عن اللاعلمية في منهج علم الكلام من تصور للعلمية لا يفترض وجود حقائق يقينية وجب البرهنة عليها، ولكنه البحث عن نقطة بداية يقينية يصل إليها العقل من داخله. ومعنى ذلك أن الحكمة تقتضي أن تكون بداية أي علم عقلية محضة دون افتراض إيمان مسبق، فعلم الكلام القديم برأي حسن حنفي يرفع شعار "أؤمن كي أعقل ثم أعقل كي يزداد إيماني رسوخا، ولكي أثبت للآخرين صحة إيماني"(11).

وهذا معناه أن علم الكلام عند القدماء يعتمد منهجا إيمانيا خالصا يقوم على التسليم بالعقائد تسليما مسبقا عن طريق الوحي، فتكون بذلك وظيفة العقل وظيفة سلبية، تكتفي بالبرهنة عن مسلمات محددة سلفا، وليس له الحق في أن يتساءل عن هذه العقائد.

سمة أخرى تطبع المنهج الكلامي إلى جانب خاصيته الإيمانية، وهي أنه منهج دفاعي وهنا يشير حسن حنفي على أن العلمية بعيدة كل البعد عن مهمة الدفاع، والهجوم، لأنهما ينطويان على دحض الموضوعية لصالح تعابير التعصب، والمصالح، والأهواء، فالعلم مهمته الوصول إلى المعرفة المؤسسة، والدفاع، والهجوم يهدفان تحقيق المصلحة على حساب المعرفة يقول حنفي: "العلم تحليل عقلي للموضوعات أو وصف علمي للظواهر لإدراك الحقائق الصورية أو المادية أو رؤية للماهيات في التجارب الحية، وليس تعصبا أو هو دفاعا عنها وهدما لنقيضها"(12).

معايب علم الكلام عند حسن حنفي لا تتوقف عند حدود منهجه الإيماني، وإستراتيجيته الدفاعية، وإنما تتعدى ذلك إلى الأسلوب الجدلي الذي يتبناه ،فالجدل برأي حسن حنفي ليس علما، وإنما فن، ولذلك فهو يسقط في الذاتية ،ويبتعد عن الموضوعية، إذ أن وسيلته المهارة وهدفه الفوز على الخصوم، فهو أقرب إلى السفسطة منه إلى العلمية،

والمصلحة أساس المعرفة، لا يعتمد على البرهان والمحاجة وإنما التلون بألوان الإيهام، وطرق الإيحاء، ولذلك فهو يرتدي شعارا لا شرعيا ولا أخلاقيا عنوانه الغاية تبرر الوسيلة يقول حسن حنفي: "ولما كان الهدف من الجدول ليس الوصول إلى الحق بل إقحام الخصم، والانتصار عليه، ولو كان على الباطل"[13] ومعنى ذلك اختفاء كل المعاني الحقيقية العلمية التي ترتكز على المنهج العقلاني البرهاني النظري، وليس الطرح الانفعالي المزاجي، والنفعي، ففي حين الهدف هو التأسيس لعلم الكلام من خلال منطق معياري، نجده ينحو نحو منطق نفعي.

ويقوم الجدل برأي حسن حنفي على التبرير بحيث أن المحاور يضع مسلمات قد تكون خاطئة ومعتقدات غير مؤسسة، ويحاول التأكيد على صحتها عنوة،" والجدل بهذا المعنى تعصب وهوى"[14].

وربما الاختلاف المذهبي، والإيديولوجي، والسياسي هو بسبب هذه الممارسات غير العلمية التي طبعت النقاشات والسجالات والمناظرات الفكرية للكلاميين، فقد غلبت المصالح والسياسات، وابتعدت الحقيقة لذلك حق مع حسن حنفي دحض المنهج الكلامي التقليدي، الذي يقوم على الأهواء، وتأسيس علم الكلام الذي يقوم على البرهان.

ب- 2- من ثورة العقيدة إلى عقيدة الثورة: باعتقادنا أن حسن حنفي، وفي معرض نقده لعلم الكلام، لا يتوقف عند حدود المنهج، وإنما تركيزه الأشد هو في الموضوعات التي طرقها، إن من حيث التناقض الداخلي للعلم في مرحلته التقليدية أو من جهة تاريخيته، الإشكالات المطروحة إن تجاوزنا جدلا تناقضها الداخلي يقول حسن حنفي "مهمتنا هي كشف الأستار وإزاحة الأغلفة ونزع القشور من أجل رؤية الإنسان حتى ننتقل بحضارتنا من الطور الإلهي القديم إلى طور إنساني جديد،فبدلا أن تكون حضاراتنا متمركزة حول الإنسان، والإنسان خارج الأغلاف، لأنها تبتغي نقل دورة الحضارة من الله إلى الإنسان، وتحويل قطبها من علم الله إلى علم الإنسان"[15].

يبدأ حسن حنفي إعلان تهافت وتناقض علم الكلام، من خلال تبيان ذلك التناقض الداخلي في تأسيس المعرفة، فالموضوع الأساسي لعلم الكلام هو الله المطلق، ومحاولة إخضاعه للتجربة الإنسانية في فهمه وقراءته هو إخضاع العام إلى الخاص، والمطلق للنسبي، والكلي للجزئي، ولذلك فإننا أمام موضوع لا يمكن تصوره، ولا إدراكه أو الإشارة

إليه، كما أنه يستحيل التعبير عنه بلغة إنسانية ناقصة لا ترقى إلى مستوى الكامل، سواء كانت تعبيرية أو صوفية أو غيرها من طرق التعبير.(16)

ولذلك يقترح حسن حنفي أسلوبا آخر في الإدراك، والتعبير، يتجاوز به الفعل الرمزي إلى فعل غير رمزي، ويقصد لغة المقاومة أي تظهر الذات الإلهية في الذات الإنسانية كحركة، وفعل، ونشاط، وجهاد ومقاومة ،يقول حسن حنفي "الله إذن ليس موضوعا للمعرفة أو التصور أو الإدراك أو للتصديق أو للتعبير بل هو باعث على السلوك، ودافع للممارسة وقصد للاتجاه وغاية للتحقيق ...الله ليس تصورا بل فعل، ليس نظرا **logos**، بل عمل **Praxis**"(17). وهو بهذا ينتهي إلى ضرورة توجيه صراع الإنسان مع الطبيعة، ومع المشكلات التي تعترضه كالتنمية، والتحرر والجهل والاستعمار... بحيث يكون الله هو وسيلة لتغيير العالم، وليس موضوعا لفهم العالم "فأزمة الإنسان في عصرنا هي أزمة غياب الإنسان"(18) وهذا معناه وقوع الإنسان في نوع من الاغتراب فالطبيعي أن يفكر الإنسان في المجتمع وفي العالم، وليس في الله لأنه ليس موضوعا للمعرفة، وإنما دافع للسلوك وغير ذلك فهو تعبير عن وعي خاطئ، وعن الكثير من الوهم والتعويض النفسي*.

إنه من النتائج الخطيرة التي انتهى إليها علم الكلام هو القضاء على النظرة العلمية للظواهر، وذلك بالقضاء على استقلال الموضوعات وربطها دائما بطرف آخر هو الله، إذ لا يتحدد أي موضوع شكل الوجود أو الحياة أو الحرية أو السياسية أو الأخلاق إلا إذا كان الله طرفا فيه، وارتباط العلل كلها بالعلة الأولى، ولذلك يدعو حسن حنفي إلى تغيير مادة العلم من مادة لاهوتية إلى مادة اجتماعية"(19) فعوض التركيز عن الله، وصفاته، وأفعاله، والتأسيس لفكرة الله الكامل الواحد وجب تسخير العقل، والعلم لأجل التأسيس لفكرة الإنسان الكامل، الذي تواجهه الكثير من التحديات والذي يجب أن يرى بأن الحل يجب أن يكون هو مصدره، بتفعيل قدراته العقلية والانفعالية، والجسمية، ولا يتوقع إن تكون الحلول مصدرها جواهر مفارقة فنحن في حاجة تجاوز كلي للتفكير اللاهوتي الذي كان ساندا إلى تفكير علمي، وضعي، لا يؤمن إلا بالتحقق العلمي للظواهر، لأن الوحي عند حنفي هو رسالة من الله إلى الإنسان وليس العكس، وهو بذلك تعبير عن إنسانية الوحي، فيصبح بذلك علم الكلام هو تدمير للوحي ولما ينبغي أن يكون عليه وهنا يؤكد حنفي هذه الفكرة قائلا : " الوحي تعبير عن وضع الإنسان الأمثل في الجماعة، ليدرك المسافة بين الواقع والمثال.

ويقوم بتحقيق رسالته في التوحيد بينهما بالفعل، وعلم الكلام اغتراب للإنسان، وقذف به خارج العالم من أجل عبور المسافة من الواقع إلى المثال عن طريق التمني والخيال أو بالوهم والخداع"(20).

وتزداد هشاشة علم الكلام بمفهومه التقليدي في انتقال الاهتمام والتقديس من المرسل إلى الرسول، وبالتالي يكون موضوع العلم قطبين في الوقت الذي يجب التركيز فيه على الرسالة، وعلى المرْسل إليهم، فالوحي هدفه تغيير العالم بالارتقاء بقدرات الإنسان، وليس مغزاه هو الانتهاء إلى نزعة لاهويته لا ترتكز على أي قاعدة علمية، وهكذا فعلم الكلام يبدأ لاهوتيا، وينتهي تشخيصيا تقديسيا فترك المسلمون رسالتهم، واهتموا بالرسول وهو من أهم عيوب الوعي العربي الإسلامي الذي يركز دائما على الأشخاص، ويهمل الأفكار فالرسول برأي حسن حنفي ما هو إلا مبلغ وما على الرسول إلا البلاغ، وليس له كل هذه الأهمية التي تجعله محورا من محاور العلم مع الله كمحور أول...إن الرسول ليس موضوعا مستقلا لعلم أصول الدين لأنه وسيلة إيصال الوحي فقط... ووسيلة تبليغ فهو وسيلة لا غاية، وطريق لا هدف، وحامل لا محمول أما الوحي فإنه موضوع مستقل غير مشخص"(21).

يقف حسن حنفي موقفا فكريا وفلسفيا متفردا يجعل نقاده يتحاملون عليه إما تفكيرا وإما تكفيرا وهو القائل: " ولست العبد الفقير إلى رحمة ربه، الحقير الراجي من الله الغفران، بل أنا فقيه من فقهاء المسلمين، أجدد لهم دينهم وأرعى مصالح الناس، ليس لنا ألقاب بل نحن من علماء الأمة، ورثة الأنبياء، والمحافظون على الشرع كما كان فقهاء الأمة من قبل".(22)

فنحن أمام مفهوم جديد للفقه، دور جديد للفقيه، ينتج هذه المدة منهجا حفريا أركيولوجيا، هدفه إحداث ثغرة عميقة في منظومة المسلمات، والمبادئ، والمعتقدات الثابتة في الخطاب الإسلامي بدءًا بضرب المقدس، وانشغال الإنسان بعلاقته بالله إلى الالتفات نحو المشكلات التي تتعلق بالإنسان، فهو مقياس كل شيء على حد تعبير السفسطائيين، مرورا بإعلان تهافت علم الكلام التقليدي موضوعا، ومنهجا، وانتهاء عند فكرة تأسيس الإنسان الكامل، فتحليل التراث هو في نفس الوقت تحليل لعقليتنا المعاصرة، وبيان أسباب معوقاتها.

فإذن رسالة المثقف والمفكر العربي هو إحداث القطيعة ليس مع التراث وإنما مع التصور التقليدي له، وتجاوزه بصورة كلية وهذا ضرورة وليس اختيار " تكرار ما قبل، والجمع بين

**أجزائه وأقصى ما نفعله نشر المخطوطات دون تغيير أو تطوير أو إعادة اختيار، وكأن التراث جسم ميت"[23]، ولذلك وجب إنتاج خطاب ديني جديد.**

**الهوامش:**

---

* يؤكد على ذلك محمد قراملكي في كتابه " **الهندسة المعرفية للكلام الجديد**".

(1) - سعد الدين مسعود عمر التفتزاني، "**شرح العقائد النسفية في أصول علم الدين وعلم الكلام** "، تحقيق كلود أسامة ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، ص4.

(2) - عضد الدين الايجي ، "**المواقف في علم الكلام**"، عالم الكتب، بيروت، ص7.

(3) - أبو حامد الغزالي، "**المنقذ من الضلال**"، ط2، مكتبة النشر العربي، دمشق، سوريا، 1939، ص 81.

(4) - مصطفى التارزي، "**الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي**"، الشركة التونسية للتوزيع ،تونس، 1975، ص51.

(5) - عبد الرؤوف الحناوي، "**فيض القدير في شرح الجامع الصغير**"، ط1، دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان، 1994، ص 357.

(6) - حسن حنفي، "**من العقيدة إلى الثورة**"، ج1، ط1، دار التنوير للطباعة والبشر، بيروت، لبنان، 1988، ص 67.

(7) – نفسه، ص 68.

(8) - حسن حنفي، "**من العقيدة إلى الثورة**"، ص 69.

* يؤكد عبد المعطي محمد بيومي من خلال سلسلة رواد الفكر العربي المعاصر في مقالته حسن حنفي بين العقائد وعلم العقائد أن حسن حنفي يفرق بين موقفين موقف ايجابي من الوحي وعرضه للعقائد، وسلبي من علم الكلام وطريقة عرضه لهذه العقائد.

(9) - حسن حنفي، "**من العقيدة إلى الثورة**"، ص 71.

* والنماذج كثيرة في تاريخ الدين الإسلامي القديم،المعتزلة، ابن رشد، حسن حنفي، نصر حامد أبو زيد.

(10) - حسن حنفي، "**من العقيدة إلى الثورة**"،ص 97.

** يقصد حسن حنفي، مسائل علم الكلام من مثل، خلق القرآن، مرتكب الكبيرة، عذاب القبر، الميزان والقرآن.

(11) - حسن حنفي، "**من العقيدة إلى الثورة**"، ج1، ص 95.

(12) - نفسه، ص 96.

(13) - حسن حنفي، "**من العقيدة إلى الثورة**"،ج1، ص 95

(14) - نفسه، ص 101.

(15)- حسن حنفي، "لماذا غاب مبحث الإنسان في تراثنا القديم، دراسات إسلامية"، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط1، 1981 ص 394.

(16) - حسن حنفي، "من العقيدة إلى الثورة"، ص 81، 82.

(17) - نفسه، ص 82.

(18) - حسن حنفي، "لماذا غاب مبحث الإنسان في تراثنا القديم"، ص 394.

* يقصد حسن حنفي مثلا، الإكثار من بناء المساجد في أوقات الهزيمة وذكر الله في أوقات الضنك.

(19) - حسن حنفي، "من العقيدة إلى الثورة"، ص 86.

(20) – نفسه، ص 87.

(21) - حسن حنفي، "من العقيدة إلى الثورة"، ج1، ص 88.

(22) - نفسه، ص 16.

(23) - حسن حنفي، "موقفنا الحضاري، الفلسفة في الوطن العربي المعاصر"، بحوث المؤتمر الاول الذي نظمته الجامعة الإردنية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ص 12.